المحاضرة الثالثة

وظيفة الفلسفة :

إن المتأمل لتاريخ الفلسفة يكتشف أن وظيفة الفلسفة حكمتها تغيرات من عصر الى آخر ومن مجتمع الى آخر ، لا لشيء إلا لمحاولة التماشي مع ما دعت وتدعو إليه ظروف الحياة وملاساتها، وعلى هذا النحو تكون الفلسفة اليونانية قبل سقراط، قد ركزت على ما يعرف بالبحث في الطبيعة والكون أي عالم الطبيعة المادي، ومن أمثلة ذلك المدرسة المالطية (طاليس، أنكسمندريس، أنكسمانس) التي كثفت البحث عن مبدأ وأصل نشأة الكون، إلا أن سقراط وفي سياق الفلسفة اليونانية حول التفكير الفلسفي اليوناني من التأمل المجرد والنظري في المسائل الطبيعية وما يرتبط به من مسائل أخرى إلى التأمل في الإنسان، ليكون هذا الفيلسوف لحظة فارقة في تاريخ الفلسفة اليونانية؛ فالفلسفة بعد هذا التحول أصبحت تسكن الأرض بعدما كانت تسكن السماء، اذ يصف شيشرون هذا الوضع بقوله : "إن سقراط هو من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض وأدخلها إلى صميم المدن والبيوت" (1) ، وهكذا يكون العصر اليوناني وعن طريق العديد من الفلاسفة، يكون قد جمع في أطروحاته وتناولاته الفلسفية بين البحث في الطبيعة (الكون) والإنسان معا.

ومع مجيء العصور الوسطى (2) ، عرفت الفلسفة وظيفة جديدة تعد إلى حد ما قاسما مشتركا بين الشرق والغرب، هذه الوظيفة تمثلت في محاولة التوفيق بين الوحي والنقل.. فالفلسفة المسيحية في أوروبا مع فلاسفة الكنيسة ك: القديس توما الاكويني ، كانت ترغب في محاولة المطابقة بين العقل والدين ولا أدل على ذلك من ظهور الفكر المدرسي الذي راح يجمع ويؤلف بين تعاليم المسيحية الدينية وآراء أرسطو الفلسفية.

ولا يختلف حال الفلسفة الإسلامية كثيرا عن سابقتها، إذ حاول الفلاسفة المسلمون أن يربطوا بين الفلسفة والإسلام: الكندي الفارابي ابن سينا ابن رشد... الخ ، هذا الأخير الذي لخص العلاقة القوية بين الفلسفة والدين من خلال كتابه " فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من اتصال" ، والذي ضمّن فيه معنى الفلسفة إذ يقول : "فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر في الموجودات وإعتبارها من جهة دلالتها على

الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعته وأنه كلما كانت المعرفة بصنعته أتم كانت المعرفة بالصانع أتم".

(1) تمتد العصور الوسطى le Moyen age من القرن الخامس للميلاد من سنة 476 م ، تاريخ إنهيار الحضارة الرومانية وانتصار المسيحية إلى غاية سقوط الحضارة البيزنطية في الشرق على يد الأتراك عام 1453م . حوالي 1000 سنة، وهي تسمى بهذه التسمية لأنها تشكل الفترة الوسيطة التي تفصل بين الحضارة اليونانية_ الرومانية وبين العصور الحديثة.

(2) إبتدع هنا سقراط طريقة جديدة في التفكير الفلسفي من خلال المنهج خاصته " التحكم والتوليد" وهو منهج حوارى قائم على طرح الأسئلة على الناس في الشوارع والأسواق مدعيا الجهل بحقائق الأمور، وبعد الفراغ من أجوبتهم يقوم بنقدها وإعادة تقويمها ليكتشفوا في الأخير أنهم كانوا يجهلون حقائق الأشياء وهذه الطريقة أو المنهج أسسه سقراط لمحاربة الفلسفة السفسطائية التي شاعت بين الأثينيين آنذاك وكان لا هم لها إلا الجدل والنقاش حول مختلف الموضوعات دون فائدة مرجوة مما تمخض عن ذلك تعدد الحقائق بتعدد الأشخاص، فلكل حقيقته الخاصة

وابتداء من القرن 15 م، أي مدخل عصر النهضة الأوروبية، اتجهت الفلسفة نحو وظيفة جديدة هي محاولة احياء التراث الفلسفي اليوناني_ الروماني، وكذا الإعتزاز بمكانة العقل ودوره الذي استبعد وأقصى في العصور الوسطى. وفي القرن 17 م أي بداية العصر الحديث (3) وتأكيدا على قدرة العقل ومكانته، أصبحت الفلسفة تركز بشكل كبير على ما يسمى بالإشكاليات المعرفية (أي إشكالية العلم) والتقليل من حدة الإهتمام بمسألة الوجود.

وهكذا مثلت نظرية المعرفة الفلسفية (4) ، أي دراسة طبيعة المعرفة، مصادرها، أشكالها، حدودها، مناهجها في العصر الحديث محور اهتمام الفكر الفلسفي بأكمله ولا أدل على ذلك من أعمال كل من فرانسيس بيكون " الأورجانون الجديد 1620م" ، روني ديكارت " مقال في الطريقة 1637م" ، ليأتي بعد ذلك القرن 18م أي عصر الأنوار والذي تميز بالدعوة إلى فكره التقدم وتحدي التقليد والسلطة الدينية، والإيمان بالعقل والدعوة إلى التفكير. وقد كان كل هذا تحت طائلة مقال نشره الألماني كانط سنة 1784م تحت عنوان "ما

الأنوار؟ (5) دعى فيه إلى الشجاعة في إستخدام العقل على أنه في ذات الوقت حدد _أي كانط_ دور الفلسفة الفعلي والذي يكمن في الإجابة عن ثلاث أسئلة مركزية هي : ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ ماذا يمكنني أن أمل فيه؟ أما كارل ماركس فيرى أن مذاهب الفلسفة منذ ماضيها السحيق كانت قد اقتصرت على تفسير طبيعة

العالم بطرق شتى و الأخرى أن تكون مهمة الفلسفة هي العمل على تغييره، وبتغيير العالم يغير الناس أنفسهم ويستحدثون قوانين جديدة تهيمن على مجرى التاريخ، وذلك عن طريق الإكتشافات العلمية (النظرية المادية) يقول: " إن الفلاسفة لم يفعلوا شيئا سوى تقديم تفسيرات نظرية للواقع وفي الحقيقة يجب تغييره بقصد إلغاء المآسي والمظالم" .

³ سمي العصر الحديث temps modern بهذا الإسم لأنه أحس بالتفوق حتى على اليونان والرومان، أي الإنقلاب على التصور الدوري للحضارة الذي كان يرى في الحضارة اليونانية _ الرومانية ذروة الحضارة الانسانية، فالنجاحات التي حققها كل من العلم والفلسفة على يد كل من كوبر نيكوس، و غاليلي وديكارت وغيرهم تعتبر حديثة ومتفوقة على ما توصلت اليه الحضارة.

⁴ ابتداء من العصر الحديث (القرن 17م) وبالضبط مع كل من بيكون وديكارت و كانط أصبحت نظرية المعرفة تحتل مركز الصدارة في أبحاث ومناقشات الفلاسفة مقارنة مع بقية موضوعات الفلسفة ونقصد هنا نظرية الوجود، وهذا يرتبط بالعصور الوسطى التي مثلت مشكلة حقيقية بالنسبة للعقل الغربي عموما والأوروبي خصوصا، إذ أن الفكر الديني الذي كان سائدا آنذاك قوض من قدرات العقل وامكاناته مما أثر سلبا على الحياة العامة، الأمر الذي سرّع من مسألة ايجاد منهجية حقيقية وفكر معقول يخرج الغرب _ أوروبا مما هما فيه من تخلف.

⁵ تناول كانط في هذا المقال " مفهوم الأنوار" وإعتبر أن سيادة العصور الوسطى ورجال الكنيسة إنما يرجعان إلى عدم قدرة الناس على التفكير في أنفسهم ليس بسبب ضعف تفكيرهم، ولكن بسبب افتقارهم الى الشجاعة، وتناول كانط في هذا المقال: أسباب نقص الأنوار، شروط الأنوار، إلغاء أبوية الدولة والكنيسة، منح الحرية في استعمال العقل، الايمان بفكرة التقدم، نبذ التقليد والتنكر له.

أما الفلسفة المعاصرة فقد عرفت أو بالأحرى تعرف دوران مختلفان وهذا راجع للتيارات الفلسفية المعاصرة؛ التيار الأول: وهو ما يعرف بالفلسفة التحليلية ويمثلها كل من: برتراند راسل، ج. إدوارد مور، كواين، سيرل... الخ، وهي تنظر للنشاط الفلسفي على أنه تحليل منطقي للغة، حيث أن الفيلسوف له هدف واحد ومحدد ألا وهو تحديد وتحليل المفاهيم التي نستعملها في سياق العلم، التاريخ، الرياضيات، السياسة، اللغة الدين... الخ، وذلك بإستخدام أدوات البرهنة المستوحاة من المنطق.

أما عن التيار الثاني: فتمثله الفلسفة القارية أو التأملية التي تنظر لمهمة الفلسفة على أساس تركيب المعارف الإنسانية من أجل نظرية واحدة شاملة للواقع بالإضافة إلى محاولة صياغة نظام موحد للقيم الإنسانية، الدينية المعرفية، الجمالية... الخ، ويمثل هذا التيار: مارتن هيدغر، جون بول سارتر، ميشال فوكو، جاك دريدا... الخ

ولا ينبغي في هذا السياق أن ننسى مهمة الفلسفة في العالم العربي والاسلامي الآن ومنذ القرن 19 م هي مهمة واحدة تتمثل في محاوله فهم واستيعاب إشكالية التخلف والإنحطاط . ومن هنا نستطيع القول أن مهمة الفلسفة لم تعد منحصرة في مجرد حب الحكمة كما ظهرت في البداية بل أضحت الفلسفة ودور الفيلسوف يتمثل في إنتاج الحكمة.